الجماهير والجهاد بين الدين والوطن!

يشير مفهوم الجهاد للوهلة الأولى إلى الحرب الدينية التي يقوم بها أبناء الدين الواحد للدفاع عن معتقداتهم ودينهم في مقابل الحرب المدنية التي يقوم بها أبناء الوطن الواحد لحماية حدوده وإمكاناته المادية والبشرية وثقافته وعاداته وتقاليده.

ويعد مصطلح الجهاد هو الأكثر أهمية وانتشارًا عند أي دراسة تختص بحركات الإسلام السياسي، وعلى الرغم من وجود فكرة شبه واضحة لدى الكثيرين عن مفهوم الجهاد المقصود، إلا أن الموضوع ليس بتلك السهولة، فمفهوم الجهاد قد مر بمراحل تاريخية وفكرية عديدة أثرت عليه وتأثر بها، فالجهاد عند تأسيس الدولة الإسلامية يختلف عن جهاد الجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة مثل الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد والقاعدة وداعش وغيرها.

لقد حمل مفهوم الجهاد من المفاهيم التي على عاتقه جزءًا كبيرًا من الصراع السياسي والفكري في العالم الإسلامي، وساهم في تشكيل الوعي العالمي لصورة الإسلام والمسلمين.

وقد انتهى الوضع بمصطلح الجهاد إلى نتائج كارثية كنتيجة حتمية لتدخل علماء الدين في كثير من أمور الحياة والواقع بطريقة (الحلال) و(الحرام)، وإخضاع العلم والفكر والأدب للدين دون مراعاة للتطور والتجدد المستمر، أصبح الدين في جهة، والعقل في جهة أخرى، وفشلت الكثير من محاولات التقريب بينهما نتيجة سيطرة المقدس على الإنساني في التأويل والتفسير.

ووسط مشاغل ثقافية كثيرة أسعدني جدًا أنني وجدت كتابًا يناقش هذه القضية بالتفصيل وفق منهج علمي وبحثي رصين، وهو كتاب "تطور مفهوم الجهاد: دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر" للكاتب والباحث الإسلامي محمود محمد أحمد، والصادر حديثًا عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر ببيروت.

يذكر الكاتب في مقدمته أن دراسة تاريخ المعرفة هي التي تنهض باكتشاف التغييرات التي أصابت المفاهيم، حيث إن كثيرًا من المفاهيم الدينية الإسلامية خضعت لمثل هذه التطورات، وما زال علينا العمل من أجل اكتشافها، ذلك أن تاريخ المعرفة يساعد في إعادة الأمور إلى نصابها كلما حصل انحراف عن الأصل الشرعي، ومن الطبيعي أن نتوقع أن كثيرًا من الأخطاء الجسيمة التي تقع باسم الدين ناتجة من تغييرات من هذا النوع أصابت الأحكام والتصورات التشريعية من دون ملاحظتها.

وقد حدد الكاتب أهدافه في عدد من النقاط وهي: أولاً استكشاف التطورات التي حصلت في مفهوم الجهاد عبر التاريخ الإسلامي؛ وثانيًا استكشاف الأسباب المباشرة التي أدت دورًا في تغيير المفهوم؛ وثالثًا محاولة الإجابة عن كيفية حصول هذه التأثيرات ودلائلها من منظور رؤية العالم في الفكر المعاصر.

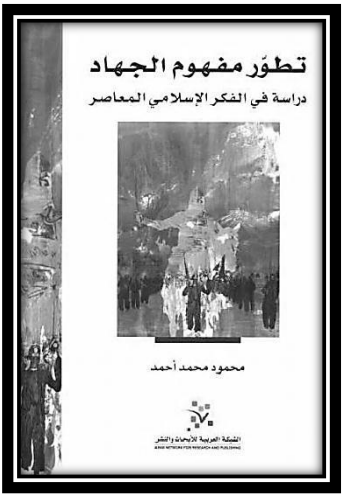

ويقوم منهج الكاتب على الاعتماد على النصوص المؤسسة، القرآن والسنة النبوية، لاستقصاء الحقائق بعيدًا عن التفسيرات والتأويلات التي جاءت بعدها.

ويذكر الكاتب أننا لا نجد ذكرًا لمصطلح الجهاد في الجاهلية قبل الإسلام، وقد ذكر المصطلح ومشتقاته حوالي ٣٤ مرة في القرآن الكريم، مما يدل على أنه ابتكار قرآني، ويدور معنى الجهاد في اللغة العربية حول "المشقة" وبذل "الطاقة"، و"التعب" الذي يتولد عنه. والمشقة التي نتكلم عنها في باب الجهاد ليست مشقة عادية؛ بما يعني أنه لا يمكن تحملها بشكل معتاد بل تحتاج إلى طاقة إضافية والتحلي بما يسميه القرآن الكريم "الصبر".

وقد ارتبط مفهوم الجهاد في السياق القرآني كما يوضح الكتاب بعدد من المصطلحات، أبرزها (في سبيل الله) وقد ذكرت في القرآن ١١ مرة، ويقصد به أن سبيل الله لا بد أن يكون مستقيمًا وهو طريق التوحيد، وقدر ربط القرآن بين الجهاد والتوحيد في آيات عديدة، والمقصود أن الجهاد في سبيل الله هو تحمل المشاق من أجل إعلاء كلمة التوحيد.

ويرصد الكاتب أزمة كبيرة حدثت بعد نزول القرآن بفترات بسيطة، وهي اختزال مفهوم الجهاد في شيء واحد فقط وهو "القتال" وهذا تفسير خاطئ ومتسرع ويتم تبريره في كثير من الأحيان من جانب فقهاء العنف.

ويتناول الكتاب الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الجهاد، فنجد أن هذا المصطلح له معان مختلفة باختلاف السياق الذي ورد فيه ومنها: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ فالمقصود هنا هو الجهاد بالقرآن بما فيه من القوة والسلطان والتأثير العميق والبيان الوافي للحقائق والقيم والحكم التي يوصل التدبر فيها إلى التوحيد.

وفي آية أخرى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) لا يمكن حمل الجهاد هنا على القتال أيضًا لأن الآية مكية، وتتكلم عن الجهاد في سبيل الله بمفهومه العام. وينطبق نفس الحكم والمعنى على الآية (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) .

أما الآيات الأخرى التي يتم فيها حمل مصطلح الجهاد على القتال والتي تبدو الأخطر في اعتماد المتطرفين عليها، فأبرزها (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) ففيها تظهر ملامح المعارك القتالية وأبرز علاماتها وهي النفير.

وهناك آية (لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ

يَتَرَدَّدُونَ) وفيها يتضح الفرق بين المجاهد (المقاتل) عن الشخص القاعد الرافض للخروج والمتباطئ عن التلبية لنداء الجهاد.

ونستنتج من ذلك أن آيات الجهاد لا يقصد منها في عمومها أن تكون ذريعة لاستخدام القوة إلا في حالات يعد فيها القتال لا مفر منه لا سيما أن الحالة الأساسية التي جعلت الجهاد شرطًا ضروريًا عند نزول القرآن هي الدعوة الإسلامية وتأسيس الدولة الناشئة والصراعات مع أصحاب النفوذ المادي والديني في المناطق المحيطة بالإسلام، وقد تغير الوضع تمامًا الآن مع ظهور فكرة الدول المدنية بشكلها الحديث.

أما مفهوم الجهاد في السنة النبوية كما يوضح الكتاب، فقد وردت أحاديث عديدة في هذا الشأن، وفي كثير منها يتم التركيز على العام، ويلاحظ المؤلف أن مفهوم الجهاد مرتبط في السنة وأقوال الصحابة بوجود قوة معادية لنشر مبدأ التوحيد، وتبذل هذه القوة المعادية جهدها في الاتجاه المعاكس للتوحيد، مما ينتج عنه الصدام وبروز فكرة الجهاد.

وقد قسم المؤلف أحاديث الجهاد الواردة في صحيحي البخاري ومسلم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول أحاديث ورد فيها مصطلح الجهاد عامًا ومن أمثلتها توصيف النبي الجهاد في سبيل الله بأنه من الأعمال التي يرفع بها العبد مئة درجة في الجنة، وذكره أن للجهاد بابًا خاصًا في الجنة كما للصلاة والصيام، وقوله على سبيل المثال (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

والقسم الثاني أحاديث ذكرت بعض المصاديق غير القتالية للجهاد ومن ذلك حديث النبي في معرض كلامه عن اختلاف الأمم السابقة بعد نبيهم، فيعد النبي مجاهدة هؤلاء باللسان والقلب إلى جانب جهادهم باليد – التي ربما تكون بمعنى القتال – أيضًا من أنواع القتال.

ومنها ما حدث في رواية أن جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ.

أما القسم الثالث فهي الأحاديث التي توضح بروز المعنى القتالي للجهاد، ويلاحظ الكاتب غلبة المعنى القتالي للجهاد في معظم الأحاديث بصورة واضحة على عكس استخدام مصطلح الجهاد في القرآن الكريم الذي كان عامًا، وترتبط معظم الأحاديث المروية عن النبي بأحداث السيرة النبوية والفترة الذهبية للفتوحات في عصر الصحابة، ونظرًا لزيادة نسبة العداء من العناصر المحيطة بالإسلام في البداية فقد صبغت معظم تلك الأحاديث بطابع الكره والشدة واستخدام القتال.

وربما هذا ما جعل كتاب السير يخصصون في مؤلفاتهم بابًا أو كتابًا للجهاد في مصنفاتهم للجهاد القتالي، وبذلك أعطوا الجهاد مفهومًا عسكريًا وسياسيًا عند تأسيس دولة الإسلام.

أما مفهوم الجهاد عند الفقهاء حسب الكتاب فيدور حول نوعين أساسيين وهما: النوع الأول هو قتال الكفار وهو الذي يساوي الجهاد وعبروا عنه بالقتال في سبيل الله، وهنا تبرز نقطة في غاية الأهمية وهي أماكن تواجد الكفار، فقد ارتبط ذلك بالتقسيم الجغرافي والسياسي للعالم وقتها والغريب أن ذلك استمر رغم مرور مئات السنين. والنوع الثاني هو قتال المصالح ويقصد به القتال داخل دار الإسلام وبين المسلمين أنفسهم، ومن أمثلة ذلك قتال قطاع الطرق وأهل الفساد والسارقين، وهناك أيضًا (أهل البغي) وهم طائفة من المسلمين – حسب تعريف الفقهاء – يخالفون جماعة المسلمين في شرعية الإمام أو الحاكم مثل الخوارج.

وقد نتج عن الأفكار والتأويلات والتفسيرات التي صاغها الفقهاء بروز مصطلحات في غاية الخطورة، منها مصطلح (دار الحرب ودار الإسلام) رغم عدم وجود أي نص تصريح له.

كما يناقش الكتاب قضية محورية في تطور مفهوم الجهاد وهي أن الجهاد الهجومي ليس أصيلاً في النصوص المؤسسة وإنما هو من تأويلات الفقهاء وإفرازات حركات الإسلام السياسي المعاصرة.

غير أن أبرز ما أشار إليه الكتاب هو ما حدث من تطوير وتسييس لمفهوم الجهاد في فكر عدد من مؤسسي الحركات الإسلامية المعاصرة أمثال سيد قطب وغيره وكذلك منظري الجهاد العالمي مثل أيمن الظواهري وأبو مصعب وبروز السلفية الجهادية التي تنادي بفكرة الجهاد المسلح ضد الحكومات القائمة في بلاد العالم العربي والإسلامي باعتبارها تمثل أنظمة حكم مرتدة بسبب حكمها بغير ما أنزل الله، وتشريعها من دون الله، وبذلك تم تحميل الجهاد معاني جديدة مثل إرشاد البشرية للخير والإصلاح وفق مفاهيم عائمة، مما نتج عنه قيام جماعات أخرى تقوم على تكفير المجتمع والجهاد ضد من يخرجون عن الطاعة لصالح فئة أو جماعة تتكلم باسم الدين ولها أهداف سياسية ومصالح تحققها من وراء ذلك.

وفي النهاية يعد كتاب "تطور مفهوم الجهاد: دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر" نموذج مهم لدراسة المفاهيم الإسلامية التي تغيرت في معناها عن النصوص الدينية المؤسسة، وينطبق ذلك على غيره مثل مفهوم "الشهادة في سبيل الله" الذي تغير معناه كثيرًا بما أعطاه معاني وتأويلات حديثة مختلفة عن المعنى الأصلي له في القرآن والسنة النبوية، ولعل مثل تلك الدراسات والبحوث الرصينة تساهم في فهم حقيقة مواضيع يظل يؤخذ منها ويرد عليها حتى تظهر الأيام والمواقف ما حدث، وما سيحدث.